نظرة الإسلام إلى البيئة والمحافظة عليها

د/ مروان علي القدومي *

Abstract

This paper tackled the view if Islam towards the environment and its preservation. This study clarified the importance of cleanliness for Islam and its impact on thrivne eonment as well as the role of ipsritual rituals in health protection. Tduts ehy also highlighlighted the Islimac legislation in environment protection and preservation. Furthermore, the study tlewd of the means and methods of preservation of the environment and its resources such as water, air, land, plants and the role of Islam in protecting them. The researcher, in the study, tried also to explore the role of environment management from an Islamic perspective. The paper also investigated the Islamic uaorppa chin regulating the relationship between man and his environment. The paper concludes by making reference to preventive legislation underlined by Islam to protect public health.

ملخص

يتناول البحث دراسة حول نظرة الإسلام إلى البيئة و المحافظة عليها وقد حاولت من خلال الدراسة توضيح مكانة النظافة في الإسلام وأثر ذلك على البيئة . ودور العبادات في الوقاية الصحية . ثم ركزت على التشريعات الإسلامية في حفظ البيئة وحمايتها وتناولت الدراسة كذلك وسائل المحافظة على البيئة ومواردها كالماء والهواء ، والأرض والنباتات، ودور الإسلام في حمايتها . وقد حاولت من خلال الدراسة استكشاف دور الإدارة البيئية في منظور إسلامي وعالج هذا البحث أسس النهج الإسلامي في تنظيم العلاقة بين الإنسان وبيئته كما تشير الورقة في الختام إلى التشريعات التي أكد عليها الإسلام للحفاظ على الصحة العامة .

---

* الأستاذ المشارك في كلية الشريعة .

للحضارة الإسلامية فضل كبير في مجال العمران والحفاظ على البيئة . فقد سبق الإسلام الأنظمة المعاصرة في تأكيده على المفهوم الواسع للبيئة ، بحيث يشمل هذا المفهوم الموارد الاجتماعية والموارد المادية المتاحة لإشباع حاجات الإنسان ، حيث عُني الإسلام بتوجيه الإنسان إلى إصلاح كل من البيئتين بتطهيرهما مما يضر وإعمارهما للخير .

ومفهوم البيئة كما حدده مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة البشرية الذي عقد سنة ١٩٧٢بمدينة (ستوكهولم) عاصمة السويد يعني رصيد الموارد المادية (الطبيعية) والاجتماعية المتاحة في وقت ما، وفي مكان ما، لإشباع حاجات الإنسان وتطلعاته [١].

فالبيئة الطبيعية تتكون من الماء والهواء والتربة ، ومصادر الطاقة والمعادن والنباتات والحيوانات، وجميعها تمثل الموارد التي أتاحها الله للإنسان، كي يحصل منها على مقومات حياته .

أما البيئة الاجتماعية فتتمثل في النظم الاجتماعية والمؤسسات التي أقامها الإنسان ، فهي الطريقة التي نظمت بها المجتمعات البشرية حياتها لإشباع حاجاتها .

ويمكن من خلال الاطلاع على مبادئ الإسلام وتشريعاته الإحاطة بموقف الإسلام المتميز في نظرته إلى البيئة والمحافظة عليها ، فقد طبقت عملياً ، وجعل الالتزام بها من قبل الفرد والدولة عبادة لله يُثاب عليها .

وسوف أحاول في بحثي هذا عرض هذه النظرة السامية.

---

[١] عبد الهادي النجار: الإسلام والاقتصاد ،الكويت ، سنة ١٩٨٣، ص ٢٤١- ٢٤٤ .

الاستخلاف وارتباطه بحماية البيئة

يقرر الإسلام أن البيئة بكل ما فيها مسخرة من الله عز وجل للناس، حتى ينتفعوا بما فيها ، استمراراً لمعاشهم وعمرانا لحياتهم ، وهي نعمة من الله تستحق الشكر من جانبهم، قال تعالى: " **ألم تَروا أنّ الله سخَر لكُم ما في السموات وما في الأرض وأسبغَ عليكُم نِعَمَه ظاهِرَةً وباطنة** " [١] .

وإذا كان الإنسان مستخلفا في هذه الأرض ، فعليه أن يتذكر المالك الحقيقي لهذه الأرض ومن عليها: " **وهو الذي جعلكُم خلائف الأرض ، ورَفعَ بعضكم فوقَ بعضٍ درجات ليبلُوكم في ما آتاكم** " [٢].

ويتذكر أن نظام الكون هو نظام دقيق محكم له قوانينه المنسجمة المتناهية في الإتقان، ولكل شيء فيه نظامه الخاص به : " **وخلق كل شيءٍ فقدره تقديرا** " [٣].

فالكون في عقيدة المسلم جزء من خلق الله ، وكل شيء فيه يسبح بحمد الله ،يقول تعالى: " **وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم** " [٤].

لذلك فموقف المسلم من الكون موقف ألفة ومحبة ، فمن مستلزمات الخلافة في الأرض إعمارها وإقامة الحضارة وحمايتها من الإفساد، وهي مهمة ربانية يؤديها الإنسان ولا يشترط أن يكون هو المستفيد منها . روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبيﷺ قال : "ما من مسلم

---

[١] سورة لقمان: آية (٢٠) .

[٢] الانعام: آية (١٦٥) .

[٣] الفرقان: آية (٢) .

[٤] الاسراء: آية (٤٤) .

يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة [١].

وعمران الأرض يتطلب أمرين هما:

أ – الإقبال على الخير ، بالارتقاء بالصالح ، كمّا ونوعاً ، وبإصلاح الفاسد .

ب – الامتناع عن الشر ، بأن لا تفسد الصالح ، وأن لا ترتضي بالفاسد كمّا أو نوعًا .

إن عمران الأرض هو هدف ناشئ عن الهدف الذي يسبقه ألا وهو العبادة ، أي إنّ عمران الأرض متضمن في هذه العبادة، فكل من سيعبد الله لا بد له من أن يعمر الأرض ، ثم هو من جهة أخرى تنشأ عنه الأهداف اللاحقة له، أي إن كل من سيعمر الأرض لا بد له من أن يؤدي الحقوق، وأداء الحقوق هو الهدف اللاحق لهذا الهدف.

وعمران الأرض مطلوب حتى ولو أنّ هدف أداء الحقوق لن يتحقق فمثلاً يقول رسول الله ﷺ : " إذا قامت القيامة وفي يد أحدكم فسيلة ، فإن استطاع إن لا يقوم حتى يغرسها فليغرسها " [٢].

فمع أنه قد لا ينتفع بهذه الفسيلة أحد ، كنوع من أداء الحقوق ، إلا أن زراعتها كانت واجبة كجزء من عمران الأرض ، وذلك كما يصورها الحديث الشريف .

وفي هذا الحديث دعوة لكل مسلم ألا يكون سلبياً تجاه المجتمع ؛ بل لابد أن يكون موقفه إيجابيًا يسعى ويجتهد في الحياة ليحصل على ما خلق من رزق دون إفساد أو إسراف .

---

[١] مسلم : صحيح مسلم مجلد ٢ص ١١٨٩ رقم الحديث ١٥٥٣ باب فضل الغرس والزرع .

[٢] عابد توفيق الهاشمي: مدخل إلى التصور الإسلامي للإنسان والحياة ص ٩٢ –٩٦ .

فرسالة المؤمن في الحياة ، إسلام وتفتح ويقظة وإعمار للأرض وخير للإنسانية ، والإسلام بدوره يوصي المسلم بالتكيف مع عوامل البيئة الطبيعية النافعة ليتمكن هذا الإنسان من التسخير الكامل لكل ما على الأرض وما فيها وما فوقها، ومن تمام نعمة الإسلام أن حذر الإنسان من كل ما يؤذيه ، كما نصح بالعلاج إذا وقع الضرر [١].

فالمسئولية تجاه البيئة تنطلق من منطلق عقيدي وخلقي ، فقد ربط الإسلام الجزاء والعقاب برباط السببية ، فتوقيع الجزاء والعقاب لمن يفسد في الأرض ، فيقول تعالى : " **فهل عَسيتُم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتَقطِعوا أرحامكُم**" [٢].

وسبب ربط حماية البيئة بالعقيدة ، هو أن مكونات البيئة ما هي إلا آيات الله في أرضه ليرينا الله جلاله وقدرته فيها .

يقول جل جلاله: " **وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون** " [٣].

هذا الجانب الروحي والديني هو من أهم الأسباب والوسائل التي تساعد على حماية البيئة لأن الرقابة الوحيدة التي يمكن أن يلتزم بها الإنسان في كل زمان ومكان هي الرقابة الذاتية أي رقابة الضمير . وكذا فإن القانون الوحيد الذي نضمن له الاحترام والتطبيق هو القانون الإلهي [٤].

---

[١] عابد توفيق الهاشمي: مدخل إلى التصور الإسلامي للإنسان والحياة ص ٩٢ –٩٦ .

[٢] سورة محمد: آية (٢٢) .

[٣] سورة الجاثية : آية ١٣ .

[٤] د. عبد الله هلال: التأهيل الإسلامي للتشريعات البيئية ص ٣٠ .

مكانة النظافة في الإسلام وأثر ذلك على البيئة

الإسلام دين النظافة ، يطلب من أتباعه المحافظة على النظافة في كل شيء وينهاهم عن القذارة والنجاسة وتلويث الأشياء كلها سواء ما يخص منها الفرد من آنية وثياب وبدن ومكان ، أو ما يشترك فيه الناس ، وتعود منفعته عليهم جميعاً كالطرقات وموارد الماء والظل الذي يحتاجون إليه، ولذلك ورد النهي عن تلويث هذه الأشياء وأن من يلوثها يستحق اللعن والطرد من رحمة الله ، ففي الحديث الشريف قال رسول الله ﷺ : "اتقوا الملاعن الثلاث ، البراز في الموارد وقارعة الطريق والظل " [١].

وعن حذيفة أن النبيﷺ قال: " من آذى المسلمين في طرقهم وجبت عليه لعنتهم" [٢] .

فالطهارة في شريعة الإسلام تكون من القذارة الحسية التي تسميها (نجاسة حقيقية) وتكون من القذارة المعنوية التي تسميها (نجاسة حكمية) وهذا المستوى الرفيع في النظافة الذي جعله الإسلام عبادة لم يسبقه إليه دين أو نظام [٣].

يروى عن الرسول الكريم قوله: إن الصحن النظيف يدعو لصاحبه ، مثلما كان يمسح المتبقي من المرق في قصعته بإصبعيه الكريمتين كي يلعقه بعدئذ ، أو يمسحه ببقية قطعة خبز، تماماً كما يفعل أبناء الغرب حالياً ؛ لأن آداب السلوك واللياقة عندهم (الأتيكيت) تقضي بعدم ترك بقية طعام في الصحن لأن مخالفة ذلك يفسر عندهم بطريقتين لا ثالث لهما:

---

[١] مسلم: صحيح مسلم، مجلد ١ ص ٢٢٦ .

[٢] المناوي: فيض القدير شرح الجامع الصغير المجلد السادس ص ١٨ رقم ٨٢٦٤ .

[٣] محمد سيد طنطاوي: فكر المسلم المعاصر ص ٧٩ .

١-إما أن الضيف يقول لصاحبة المنزل أن طعـــامك رديء ، ولا تجيديـــن الطهي أو لمضيفه أن طعامك لا يؤكل.

٢- أو أنه يبرهن على شراهته لأنه أخذ من الطعام أكثر من حاجته أو كمـا يقول المثل" عينه جوعانه"[١].

وأكد الرسول ﷺ في حشد من الأحاديث على نظافة الإنسان ، ودعاه إلى التجمل والتطيب في مواطن الاجتماع مثل يوم الجمعة والعيديـــن فقـــال ﷺ : "الغسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم"[٣].

وفي حديث آخر " من أكل ثوما أو بصلاً فليعتزلنا أو ليعتزل مسجدنا، وليقعد في بيته"[٤].

وشددت السنة على أجزاء معينة من الجسم تحتاج إلى عناية خاصة مثل الفم والأسنان، ومن ثم كان الحض على التسوك وتأكيد استحبابه، فقد قـــال فيـــه ﷺ : لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة "[٥].

وتكميلا لذلك جاءت الأحاديث بما عرف باسم "سنن الفطرة" التي تدل رعايتها على مدى حرص الإسلام على النظافة والزينة ، وتشـــمل : تقليـــم

---

(١) د. عبد الرحمن حميده: التلوث أبعاده وأخطاره - مجلة كلية العلوم الاجتماعية ص ٥٨٠ ، العدد الثـالث، جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية / الرياض ١٣٩٩هـــ - ١٩٧٩م .

(٢) مسلم: صحيح مسلم ، مجلد ٢ ، ص ٥٨٠ رقم ٨٤٦. (واجب) : أي متأكد في حقه . كمـــا يقـــول الرجل لصاحبه : حقك واجب عليّ. أي متأكد، لا أن المراد الواجب المتحتم.

(٣) مسلم: صحيح مسلم ، مجلد ١، ص ٣٩٤ رقم ٥٦٣

(٤) مسلم: صحيح مسلم ، مجلد ١، ص٢٢٠ رقم ٢٥٢ .

الأظافر، و قص الشارب، ونتف الإبط، وحلق العانة، ونحو ذلك، وهي في الصحيحين[١].

ومما عنيت السنة بنظافته : البيت ، فلا بد من تنظيفه من كل الأقذار والأخباث ، التي يسوء منظرها ، ويضر مخبرها.

وفي الحديث الذي رواه الترمذي عن سعيد بن المسيب قال : " إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة ، فنظفوا أفنيتكم ولا تشبهوا باليهود " [٢]

واعتنى الإسلام بنظافة المساجد وأمر بأخذ الزينة عند التوجه إليها بقصد الصلاة ، قال تعالى: " **يا بني آدم خُذوا زينتكُم عندَ كُلِ مسجد**" [٣].

فالإسلام والنظافة شيئان متلازمان ، حيث دعا الإسلام إلى النظافة بكل مظاهرها ، لمنع انتشار الأمراض مع أن (الميكروبات) سبب هذه الأمراض لم تكن معروفة ولم يكتشفها العلماء إلا بعد ثلاثة عشر قرناً من ظهور الإسلام [٤] .

ولصحة البيئة ومنع التلوث مكانة خاصة في هديه ﷺ ، ومن الأحاديث الشهيرة التي يكاد يحفظها جميع المسلمين " إماطة الأذى عن الطريق صدقة " [٥] .

---

[١] د. يوسف القرضاوي: فتاوى معاصرة ج٢، ص٨٠ . الحديث في مسلم: صحيح مسلم ، مجلد ١، ص ٢٢١ رقم ٢٥٧ .

[٢] المناوي : فيض القدير شرح الجامع الصغير المجلد الثاني ص ٢٣٩ رقم ١٧٤٨ .

[٣] سورة الأعراف: آية ٣١ .

[٤] د. عز الدين فراج: الإسلام والرعاية الصحية الأولية ص ٤ .

[٥] نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم ، كتاب الايمان م٢ ص ٦٣. " الايمانُ بضعٌ وسبعونَ ، أو بضعٌ وستون شعبةً . فأفضلها قولُ لا إله إلا الله . وأدناها إماطة الأذى عن الطريق . والحياء شعبةٌ من الايمان " .

والمقصود بإماطة الأذى هو : رفع الأذى وإزالته عن طريق الناس وذلك كالشوك والعظم والحجر والزجاج وما شابه ذلك مما يعترض الناس في سبيلهم فيؤذيهم .

وإزالة الأذى عن طريق الناس مع أنها عمل هين وصغير من حيث الحجم ولكنه في ميزان الله وشرعه كبير . والله سبحانه يجزي الثواب للذي يميط الأذى عن طريق الناس لما في ذلك من إسهام في خدمة الجماعة ودفع الضرر عنهم . ولأن عملية الإماطة نفسها دليل على إيجابية المسلم المميط. وذلك هو شأن الإنسان المسلم إذ يعبأ كثيراً بمصلحة الناس ويهتم بأمورهم ليظل على الدوام حريصاً على تحقيق الخير والمصلحة للناس ودفع الأذية والشر عنهم. [١]

وفي حديث آخر عن أهمية نظافة الطرق والمسالك واهتمام الإسلام بها قوله ﷺ " بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطريق فأخَّرَهُ ، فشكر الله له، فغفر له "[٢]. وروي عن أبي برزة انه قال: يا رسول الله دلني على عمل أنتفع به ، قال: اعزِلِ الأذى عن طريق المسلمين "[٣].

فإذا كان جزاء رفع الأذى من الطريق المغفرة من الله سبحانه وتعالى ، فان جزاء رمي الأذى على الطريق هو العقاب من الله سبحانه وتعالى . ولذلك يحذر الرسول ﷺ من أن يكون المسلم مصدراً للشر والضرر ، فقد روى ابن ماجه عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قوله: " إن من الناس مفاتيح للخير مغاليق للشر وإن من الناس مفاتيح

---

[١] د. أمير عبد العزيز : نظام الإسلام ص ٢٧٠ .

[٢] مسلم : صحيح مسلم، كتاب الامارة ، م ٣ ص ١٥٢١ رقم ١٩١٤.

[٣] . المناوي : فيض القدير ، ج١ ص ٥٦٠ رقم ١١٥٧.

للشر مغاليق للخير ، فطوبى لمن جعل مفاتيح الخير على يديه، وويل لمن جعل الله مفاتيح الشر على يديه " (١) .

على ضوء هذه التعاليم يرفض الإسلام أن يقصد أحد أفراد المجتمع الإضرار به ، بحجة حقه في استعمال ملكه، ولا يقبل أن يكون استعمال المالك لملكه سبباً في إصابة المجتمع بالضرر ، وذلك لأن المصلحة العامة مقدمة على المصلحة الخاصة (٢) .

فالفرد أياً كان موقعه ، وأياً كانت طبيعة اختصاصه، له دور أساسي في العمل الصحي، وليست الصحة من اختصاص الأطباء أو السلطات الصحية فحسب، بل لا بد من مشاركة الجميع في توفير الصحة للجميع ، استجابة لقول الله عز وجل: " **وتعاونواعلى البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان**"(٣) .

ولا ريب أن النظافة سبيل إلى الصحة ، والصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى . والنظافة تشمل النظافة المادية من القذارة المحسوسة والقذارة المعنوية الناتجة من الفحش والغيبة والنميمة وأكل الحرام وتطهير اللسان من جميع النجاسات . واجتناب الفواحش التي تعتبر من الكبائر لأنها قمة القاذورات التي تلحق بالبدن وتصيبه بأبشع الأمراض وأفتكها وعلى رأسها " مرض الإيدز" .

دور العبادات في الوقاية الصحية: وإذا كانت الوقاية – كما يقولون – خيراً من العلاج فإن الإسلام ضمن العبادات التي أمر الله بها، تقربا إلى الله ،

---

١ . المناوي: فيض القدير شرح الجامع الصغير المجلد الثاني ص ٥٢٨ رقم ٢٤٦٥ .

٢ . الشاطبي: الموافقات ج٢، ص٣٥٠ .

٣ . سورة المائدة: آية ٢ .

كثيراً من أنواع الوقاية التي تحفظ الإنسان إذا داوم عليها، وأداها حقها من التعرض للإصابات الجوية بسبب الأتربة والحرارة ، ومن ذلك الأمر في الوضوء للصلوات الخمس.

فالطهارة مفتاح العبادة اليومية " الصلاة " كما أن الصلاة مفتاح الجنة كما أن الإسلام أوجب طهارة الثوب من النجاسات في الصلاة، قال الله تعالى: " **وثيابك فطهر**"[١] .

وقد شملت تعاليم الإسلام كل نواحي الحياة ، حتى قضاء الحاجة ، أوجب الشارع علينا إبعاد ما علق بالجسم من فضلاتها ، وتطهير مكان خروجها من الجسم ، وشدد في ذلك جرياً على عادته في الدعوة إلى الطهارة قال تعالى: " **إنّ الله يحب التوابين ويحب المتطهرين**" [٢].

ويكره كراهة تحريم على الأصح قضاء الحاجة في أماكن التجمعات والمنتزهات وراحة الناس، ولا سيما الأماكن التالية:

أ – موارد المياه التي يردها الناس للشرب والاستسقاء.

ب – طريق الناس .

ج – الظل الذي يأوي إليه الناس أو ينتفعون به .

لأن في ذلك أضراراً تعود على المجتمع صحياً واجتماعياً بأسوأ العواقب[٣]. وكان والي الحسبة يمنع كل ما فيه أذية وضرر على المسلمين كالمزاريب الظاهرة على الحيطان، لما تصبه من مياه الأمطار وغيرها على رؤوس المارة ، وكذلك مجاري الأوساخ الخارجة من الدور وسط الطريق.

وينهى الوالي أصحاب الدور عن إلقاء الكناسة على جنبات الطريق

---

[١] المدثر : آية ٤ .

[٢] البقرة : آية٢٢٢

[٣] عبد الوهاب عبد السلام طويلة : فقه الطهارة ص ١٥٨.

وعن إلقاء فضلات الطعام وقشور الفواكه والخضار ورش الطريق بالماء رشاً كثيراً ليمنع الزلق والسقوط[١].

ومن أساليب نظافة الطرق التي دعا إليها النبي الكريم قوله: " البصق على الأرض خطيئة وكفارتها ردمها" [٢].

وهذا يدل على أن الإسلام دعا إلى عدم البصق على الطريق منذ أربعة عشر قرناً من الزمان قبل أن يعرف الناس ما يحمله البصق من ميكروبات ضارة تتناثر بسببه[٣] .

كما حثت السنة العناية بالطعام والشراب ، وحمايتهما من أسباب التلوث، وفي هذا جاء الحديث الصحيح : " إذا نمتم فأطفئوا المصباح، وأغلقوا الأبواب ، وأوكوا الأسقية – اربطوا قرب الماء – وخمروا الشراب"[٤].

وحث الرسول عليه السلام على غسل اليدين قبل الطعام وبعده، وبعد الخروج من المرحاض (أو بعد العودة من الخلاء) . كما أن النبي أوصى بغسل اليدين عند الاستيقاظ من النوم فقال : "إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يدخل يده في الإناء حتى يغسلها ثلاث مرات فإن أحدكم لا يدري أين باتت يده"[٥].

لقد أثمرت هذه التعاليم عندما طبقت وأثبتت مقدرتها على خلق المجتمع الصحي المثالي .

---

[١] محمد بن أحمد القرشي : معالم القربة في أحكام الحسبة ص ٧٩.

[٢] مسلم : صحيح مسلم ، مجلد ١ ص ٣٩٠ ، رقم الحديث ٥٥٢.

[٣] د. عز الدين فراج: الإسلام والرعاية الصحية الأولية ص ٩ .

[٤] . المناوي: فيض القدير شرح الجامع الصغير المجلد الأول ص ٤٤٩ رقم ٨٧٩ .

[٥] مسلم: صحيح مسلم، مجلد ١ ص ٢٣٣، رقم ٢٧٨ .

وإذا كان المسلمون اليوم يمرون بمرحلة تخلف صحي شديد فذلك قطعاً بسبب بعدهم عن تعاليم دينهم . وليس العيب في الدين نفسه بل العيب فينا [١].

التشريعات الإسلامية ودورها في حماية البيئة :

لقد رأينا كيف تدعو تعاليم الإسلام إلى النظافة وتنهى عن القذارة وتحمي من التلوث كل نعمة أنعمها الله على عباده كالماء والهواء والأرض والنبات وقارعة الطريق والظل الذي يستظلون به . وتجعل تلويث البيئة بأي ملوث من نجاسة أو مخلفات ضارة أو مواد سامة من الإفساد في الأرض يحاسب الله عليه حساباً شديداً " **ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها**"[٢] .

ويمكن تحديد فضل الإسلام في نظرته إلى البيئة والمحافظة عليها في التشريعات التالية:

حسن الانتفاع بالملكية:

اهتم الفقهاء بتعريف الملكية ، ومدى التصرف بها والانتفاع منها على وجه شرعي، وتشمل الملكية الفردية والملكية الجماعية مع التأكيد على حسن الانتفاع الكامل بالأرض المملوكة ، وحث المالك على حسن الانتفاع بهذه الأرض. ويؤكد الفقهاء على أن الإسلام قد قرر الحقوق ومنها حق الملكية محدودة بأوامر الشارع ونواهيه اجتناباً للهوى والنزعات الفردية ، ولكي لا تتخذ هذه الحقوق وسيلة للإضرار بالأفراد أو بالأراضي أو بالبيئة بصورة فيها استبداد بالأفراد أو بالأرض، ومن هنا كانت الملكية في الشريعة

---

(١) ابراهيم الصياد: الطب الإسلامي، العدد الثالث ص ٣٦٦، الكويت سنة ١٤٠٥هـ /١٩٨٤م .

(٢) سورة الأعراف : آية ٥٦ .

الإسلامية وظيفة اجتماعية ، وهذه الحقيقة الشرعية تأكيد على علاقة الجماعة بالأرض ومدى عناية الإسلام بتنظيم هذه العلاقة [١].

فالتعسف في استخدام حق الملكية في الأرض يؤدي إلى أذى للبيئة أو الواقع الاجتماعي والاقتصادي للإنسان ، ودرءاً لهذا التعسف وتحقيقاً لمبدأ العدل ، فإن لولي الأمر أن يحمل من يهمل أرضه على زراعتها إذا اقتضت المصلحة العامة ذلك ، وهو إذ يتدخل في هذا ، فلأجل مصلحة الفقير، لأن له حقاً معلوماً في الزرع فضلاً عن المصلحة العامة للبلاد في تنمية الثروة الوطنية، فإذا تقاعس فلولي الأمر أن يؤجرها لغيره يعمل فيها بأجر المثل [٢]

منع التصرف المضر بالمجتمع: حرص الإسلام على إقامة مجتمعه على دعائم من التكافل والتعاون والتحابب والإحسان والعدل ، وعلى ضوء ذلك يرفض الإسلام أن يقصد أحد أفراد المجتمع الإضرار به ، بحجة حقه في استعمال ملكه، ولا يقبل أن يكون استعمال المالك لملكه سبباً أو مبرراً في إصابة المجتمع بالضرر ، وذلك لأن المصلحة العامة مقدمة على المصلحة الخاصة[٣].

والضرر كلمة جامعة شاملة تضم كل أوجه الأذى والإساءة والمكروه وبعبارة أوجز فإن الضرر هو إلحاق مفسدة بالغير [٤].

وفي شمول التنصيص على تحريم الضرر كيفما كان يقول الرسول ﷺ: " لا ضرر ولا ضرار " [٥].

---

[١] د. آمنة محمد نصير : الإسلام وحماية البيئة ص ٧٢ .

[٢] د. فتحي الدريني: الحق ومدى سلطان الدولة في تقييده ص ١١٣ .

[٣] الشاطبي: الموافقات ج ٢ ص ٣٥٠ .

[٤] مصطفى الزرقا: المدخل الفقهي العام ج ٢ ص ٩٧١ .

[٥] البيهقي: سنن البيهقي ج ٦ ص ٦٩ .

وعلى هذا فإن الضرر كيفما كان شكله أو صنفه فإنه محرم يجب إزالتـــه إذا وقع طبقا للقاعدة الفقهية التي تقول : " الضرر يزال" [١].

وقد اعتبر الإسلام إنكار الفساد ومحاولة إصلاحه مقياســـا لدرجـــة الإيمان حيث روى مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قوله: " من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان " [٢] .

وفي هذا دعوة لكل مسلم ألا يكون سلبياً تجاه أي خطر يهدد المجتمع ، لأن الإسلام يأمر أتباعه بالسعي في الأرض وإعمارها ، ثم حمايتها من الضـــرر والفساد . قال تعالى: " **إنَّ الله يَأمُرُ بالعدلِ والإحسانِ وإيتـــاء ذي القُربـــى وينهى عَنِ الفحشاء والمُنكر والبغي** .... " [٣].

ويذهب الإسلام في هذا السبيل إلى حد أنه يجيز نزع الملكيـــة أو رد الإقطاع أو منع الأذى إذا أساء صاحبها استخدامه لها، وأدت إساءته هذه إلى الإضرار بغيره، ولم يكن ثمة وسيلة أخرى لمنعه من ذلك.

وقد طبق هذا المبدأ الرسول الكريم عليه السلام على ســـمرة بـــن جندب، فقد كان لسمرة هذا نخيل في بستان رجل من الأنصار ، وكان سمرة يكثر من دخول البستان هو وأهله بحجة تعهد نخيله فيـــؤذي هـــذا صـــاحب البستان. فشكاه إلى الرسول عليه السلام فاستدعى سمرة ، بعد أن تحقق من صحة الشكوى وقال له : بعه نخلك ، فأبى. قال: فاقطعه وانتفع به، فـــأبى .

---

[١] د. عبد المنعم جابر: القواعد الفقهية ص ٤٢ –٥١، ط: ١٩٩٣م .

[٢] مسلم : صحيح مسلم مجلد ١ ص ٦٩، رقم ٧٨ .

[٣] سورة النحل: أية ٩٠ .

فقال: هبه ولك مثله في الجنة ، فأبى . فقال عليه السلام: "فأنت إذا مضار" . أي تبتغي ضرر غيرك ثم قال لمالك البستان: اذهب فاقلع نخله.

فالإسلام يحترم حق الإنسان على أخيه الإنسان ، سواء في حرمة الجار وعدم إيذائه بأي أذى في أرضه ، أم في ماله، كما يحترم الإسلام حق الإنسان في أن يعيش حياته بدون قلاقل أو مضايقات، يسببها الجار لجاره، فعن رسول الله ﷺ قال: " لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه"[1].

كما حرم الإسلام التلاعب في التعامل واحتكار السلع والربا والرشوة واستغلال النفوذ ، وكل ما من شأنه الإضرار بالمصلحة العامة.

نظام الميراث والبيئة :

وكما أن الإسلام لا يدع المالك حراً في تصرفه في ملكه في حياته لا يدعه كذلك حراً في تصرفه فيما يؤول إليه ملكه بعد وفاته، بل يقيد هذا التصرف كذلك بقيود كثيرة لتحقيق الصالح العام واتقاء الضرر والضوار ، وتتمثل هذه القيود في الأحكام التي وضعها الإسلام للميراث والوصية.

فقد وضع الإسلام للميراث نظاماً حكيماً يكفل توزيع الثروات بين الناس توزيعاً عادلاً ويحول دون تضخمها ودون تجمعها في أيد قليلة ، ويؤدي إلى تقليل الفروق المالية بين الطبقات والأفراد وتقريب هؤلاء وأولئك بعضهم من بعض فنظام الميراث في الإسلام يوزع تركة المتوفى على عدد كبير من أقربائه ، فيوسع بذلك دائرة الانتفاع بها من جهة ، ويحول من جهة أخرى دون تجمع ثروات كبيرة في يد عدد محدود من الأفراد.

فبفضل هذا النظام الحكيم لا تلبث الثروة الكبيرة التي يتفق تجمعها في يد بعض الأفراد أن تتوزع بعد بضعة أجيال على عدد كبير من الأنفس،

---

[1] مسلم: صحيح مسلم مجلد ١ ص ٦٨، رقم ٧٣ .

وتستحيل إلى ملكيات صغيرة ،وهذا هـــو أمثـــل نظـــام لتحقيـــق التـــوازن الاقتصادي وعلاج ما عسى أن يطرأ على هذا التوازن من اختلال [١] .

وكذا فإن هذا النظام في الشريعة الإســـلامية يعـــود علـــى الأرض بالعناية وحسن الرعاية ، ويكفل لأكبر قاعدة من الورثة الحصول على قطع من الأرض تكون مصدر رزقهم فيعتنون بها أكبر عناية، وهذا التشريع فيـــه رعاية للبيئة وحماية لها من حصرها في يد فرد واحد يتسلط فيـــها ويســـتبد بالعباد [٢].

استنتزاف الموارد الطبيعية :

لقد أودع الله في الأرض كل ما تحتاجه الحياة عليها " **وجعل فيـــها رواسيَ من فوقها وباركَ فيها وقدر فيها أقواتها** " [٣]

واستنزاف هذه الأقوات بالاستخدام الجشع غير الرشيد يُحدِثُ نضوبـاً لهذه الموارد ويتسبب في اختلال النظام البيئي . فالماء يعاني مـــن التلـــوث والندرة، والثروات الطبيعية غير المتجددة مثل النفـــط والفحـــم والمعـــادن تستنزف بلا رحمة ويوشك بعضها على النفاذ[٤].

لقد شدد الإسلام على موضوع الإســـراف ، يقـــول ﷺ : " كلـــوا واشربوا وتصدقوا والبسوا من غير إسراف ولا مخيلة"[٥].

---

(١) د. علي عبد الواحد : أثر تطبيق النظام الاقتصادي في المجتمع ص ٥٠٣ ــ ٥٠٥ .

(٢) د. آمنة محمد نصر : الإسلام وحماية البيئة ص ٧٥ .

[٣] سورة فصلت: آية ١٠ .

[٤] د. عبد الله هلال: التأصيل الإسلامي للتشريعات البيئية ص ٣٨ .

[٥] رواه أحمد وابو داود وابن ماجة ، المناوي: فيض القدير شرح الجامع الصغير ، المجلد الخامس ص ٤٦ رقـم ٦٤٠٢ .

والإسراف هو الإنفاق في حرام ولو قل ، أو الإنفاق في مباح إذا زاد عن الحد، وأما التبذير فهو أشد من الإسراف ، فهو المغالاة في تجاوز الحد، والتوسع في الإنفاق على المحرمات والمعاصي والشهوات ، حتى إن الله سبحانه وتعالى شبه المبذرين بإخوان الشياطين.

والمبذر لماله يعدّ في الشرع سفيهاً ، غير رشيد، يحجر عليه عند جمهور الفقهاء.

وأما الترف فهو أشد من التبذير ، وربما يكون حالة يؤول إليها المبذر ، فيتوسع في ملاذ الدنيا وشهواتها ، وتبطره النعمة وسعة العيش.

وعليه فإن السرف والتبذير والترف يدخل كله في إضاعة المال ونفاذ الموارد والخيرات. ولذلك فإن الإسلام يدعو إلى الحد الأمثل في الاستهلاك، وهو الاعتدال والتوازن.

وسائل المحافظة على البيئة:

إن الإسلام يأمر بالمحافظة على البيئة ومواردها، وينهى عن تلويثها وتعطيل دورها في الحياة. وترتكز وسائل المحافظة على البيئة على إيقاظ ضمير كل فرد ، فعليه أن يحافظ على البيئة أثناء تعامله معها في حاجاته اليومية وأعماله المتكررة ، فلا يلحق الضرر بها ولو كان خاليا بنفسه لا يراه أحد، فإن ذلك واجب شرعي والله يراقبه وهو الذي يحاسبه.

المحافظة على الماء : الماء من أعظم نعم الله على الناس خلقه الله لهم عذبا زلالاً يسوغ شرابه، ولم يجعله ملحاً أجاجاً ، فهو ينبع من شآبيب رحمة الله ، ولا يستطيع الإنسان أن يعيش بدونه أكثر من أيام قليلة فهو أساس حياة الكائنات كلها، قال تعالى: " **وجعلنا من الماء كل شيء حي**" [1]. والمحافظة على هذه النعمة فريضة من فرائض الله ، فلا تهدر من غير

---

[1] سورة الأنبياء: آية ٣٠.

فائدة ، ويكره التبذير في استعمال الماء ولو كان الإنسان على نهر جار ، كذلك يجب على الإنسان ألا يلوث الماء بشيء يفسده ، ففي الحديث الشريف " لا يبول إنسان في الماء الذي يستحم فيه ولو كان جارياً " [١] وعن جابر أن النبيﷺ قال: " لا يبولنّ أحدكُم في الماء الراكد" [٢] فالتبول في هذه المياه الراكدة الساكنة التي يستحم الناس فيها عادة (ومنها التُرَع والمسابح) مدعاة لعدوى الأمراض ويلحق بالتبول التغوط لأنه أقبح والنهي عنه أشد.

ويقاس على البول والبراز كل ما يتلوث به الماء، ويصيب الإنسان في صحته ، كإلقاء فضلات المصانع والحيوانات النافقة ، والقمامة ، في الأنهار والترع والمصارف ، وكذلك غسل الملابس الملوثة بالجراثيم في مياهها ، فقد ذم سبحانه كل شخص " **وإذا تولّى سعى في الأرض لِيُفسِدَ فيها وَيُهلِكَ الحَرثَ والنّسل والله لا يحب الفساد**"[٣].

ويتمثل حرص الإسلام في المحافظة على الماء في دعوته إلى عدم الإسراف في استعماله حتى في " الوضوء" : فعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ مر بسعد وهو يتوضأ فقال : " ما هذا السرف " ؟ فقال : أفي الوضوء إسراف ! قال:" نعم وإن كنت على نهر جار "[٤]. فالحديث يعطينا صورة مشرقة لدين الله تعالى ، ذلك أن الزيادة في قدر الماء المستخدم ظلم، ولو كان ذلك في حال عبادة . ونستطيع القول : إن الصورة المثلى في استخدام الماء ، هي الصورة التي تأخذ بمبدأ التحكم في كمية الماء المستخدمة ، وتضبط حجم الماء اللازم .

---

[١] رواه أبو داود ومسلم: صحيح مسلم مجلد ١ ص ٢٣٥ رقم ٢٨٢ .

[٢] مسلم: صحيح مسلم مجلد ١ ص ٢٣٥ رقم ٢٨١ .

[٣] سورة البقرة: آية ٢٠٥ .

[٤] سنن ابن ماجة ٤٢٥ ، ج٢ ص ٧٤٨.

المحافظة على الهواء: والهواء نعمة لا تقل عن الماء في حاجة الإنسان إليه فهو عامل ضروري لحياة الإنسان وبدونه لا نستطيع العيش لفترة تزيد عن خمس دقائق. وكل تعرض له بالإفساد والتلويث اعتداء على نعمة من نعم الله وكفر بهذه النعمة فضلا عن إفساد الحياة على وجه الأرض والعدوان الظالم على مخلوقا ت الله التي تتوقف حياتها وبقاؤها وصلاحها على نقاء الهواء وعدم تلوثه بالغازات الضارة والسامة وغيرها.

فالهواء لا يستغني عنه إنسان ولا حيوان ولا نبات[١].

لقد أصبح الإنسان يلوث الهواء والتربة والماء بآلاف الأطنان من المواد الضارة والمبيدات، وقد أدى هذا التلوث إلى زيادة التصحر وقضى على آلاف الأنواع من الحيوان والنبات وأدى إلى انقراضها[٢]. وهنا ينطبق قوله تعالى: " **ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي النّاس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون**"[٣].

فالفساد ينشأ في الكون من مخالفة التوجيهات الإلهية المتعلقة بنعم الله ويكون من الإنسان ، حيث لا ينشأ الفساد من الجماد، ولا ينشأ الفساد من الحيوان ولا ينشأ من المخلوقات الأخرى ولكن الفساد ينشأ من الإنسان[٤]. لذلك فإن أنظف هواء هو الذي يوجد فوق المحيط ولا سيما في أواسطه.

لقد بلغ تلوث الهواء في مدن بعض الدول الصناعية ، كاليابان مثلا ، درجة مخيفة ، حتى أن بعض المؤسسات أقامت في الشوارع الرئيسية غرفا صغيرة، شبيهة بحجرات الهاتف ، يستنشق الإنسان المرهق من جو المدن الوسخ مقداراً معيناً من الهواء النقي من خلال قناع ، كالقناع الذي يلبسه

---

(١) سيد طنطاوي وآخرون: فكر المسلم المعاصر ص ٧٦ .

(٢) محمد د. لطفي منصور: حقوق الإنسان والبيئة في الإسلام ص ٩٦ .

(٣) سورة الروم: آية ٤١ .

(٤) الشيخ محمد متولي شعراوي: في تربية الإنسان المسلم ص ٤٢ .

الذين يتقون الغازات السامة ، وذلك لقاء مبلغ معين يدفعه لتشغيل الجهاز. ولا داعي للاستغراب فنحن نعيش عصر بيع الهواء النقي مثلما نشتري المياه النقية[١].

كما لا ننسى أخطار الأسلحة الكيميائية والمواد المشعة ومخلفاتها ككارثة انفجار المفاعل الذري في " تشرنوبيل" بروسيا. وسكب النفط وتسربه في مياه الخليج واشتعاله، وكذلك ما نسمعه عن ثقب طبقة الأوزون نتيجة استخدام الغازات في الصناعة ، بات مشكلة عالمية أدت إلى تغيرات مناخية في أنحاء العالم تهدد الإنسان والحيوان.

أخطار الغبار :

لقد أوصى رسول الله ﷺ بتجنب الغبار فقال: " تنكبوا الغبار فإن منه تكون النسمة " [٢] وللنسمة معانٍ ذكرها اللغويون منها الشيء الحي صغر أم كبر . ومعنى الحديث : تجنبوا الغبار، فإنه توجد به كائنات حية صغيرة لا يمكن للعين أن تستبينها وإذا وجدت في الهواء فإنها تلوثه وتسبب لكم أضراراً ، إذ من المعروف أن ذرات الغبار تحمل الجراثيم المسببه للأمراض.

أما إذا أخذنا بأحد معانيها اللغوية الأخرى وهو (الربو) كما فسرها البعض فإن هذا الحديث يبين لنا وجهاً آخر من أنواع الخطر يجب أن نتفاداه حيث إن الغبار الحاوي أتربة عضوية يكون مسبباً لمرض الربو والحاوي

---

[١] د. عبد الرحمن حميده: التلوث أبعاده وأخطاره ص ٥٤٨ .

[٢] ذكره أحمد محمد سليمان في كتابه القرآن والطب ص ٩٣. وذكر أنه ورد في قاموس مختار الصحاح ، ولم أقف على تخريجه ، وذكره الألباني في السلسلة الضعيفة ، المكتب الإسلامي .

على أتربة معدنية يكون سبباً لبعض أمراض الجهاز التنفسي وأنواع التسمم بتلك المعادن.

وبذلك يقدم لنا الرسول ﷺ نصيحة لم يلتفت إليها إلا قبل سنوات وبجهود مضنية من الباحثين والعلماء[١].

أخطار التدخين : لقد أحل الله تعالى لعباده كل طيب مفيد وحرم عليهم كل خبيث ضار، قال تعالى : " **ويحلّ لَهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث**"[٢].

ولا ريب أن مقررات العلم والطب المعاصرين ، وما كشفته من آثار التدخين على أصحابه وكذا على من يكون قرب المدخن ، قد أكدت وقوع الضرر ، فتلوث الهواء في الغرف أو الحافلة أو القاعة يضر ضرراً بالغاً بالحاضرين. يقول ﷺ : " لا ضرر ولا ضرار "[٣].

فالتدخين إذا مرفوض من قبل الإسلام ؛ بل إنه عادة ممقوتة لأنه يضر بالمصالح الضرورية للخلق ، نظراً لما يجلبه من الأذى على مدمنه في البدن والنفس والمال ، وإنه نوع من الانتحار البطيء .

إضافة إلى تلويثه الهواء الذي نستنشقه وإفساده له، فوق ما فيه من رائحة كريهة ، وكل هذا فيه إيذاء للناس ، والله تعالى يقول : "**والذين يُؤذون المؤمنين والمؤمنات بِغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مُبيناً** "[٤].

والذين يفسدون الهواء بدخان مصانعهم ، وخاصة مناشير الحجر ، إضافة إلى مخلفات الأنشطة الصناعية ، لأنهم بذلك يجعلون الهواء غير

---

[١] المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية : أثر السلوك على صحة الفرد والمجتمع ص ٣١٦ .

[٢] سورة الأعراف : آية ١٥٧ .

[٣] ابن ماجه : سنن ابن ماجه ج٢ ص ٧٨٤، ابن حنبل : سنن الامام احمد ج٥ ص ٣٢٧.

[٤] سورة الأحزاب: آية ٥٨ .

صالح للتنفس الضروري لكل الكائنات ، ويعد عملهم هذا إفساداً في الأرض وتلويثاً للبيئة ، وإتلافاً لنعمة الهواء.

الأنشطة العسكرية : لقد منعت قوانين الحرب استخدام الأسلحة ذات القدرة التدميرية الهائلة ، والمقذوفات وأدوات القتال التي تسبب آلاما مبرحة كالرصاص المتمدد أو المحرق واللهب السائل بمضخاته الصاعقة ، ولكن هذه الضوابط كثيراً ما تنتهك على صعيد الواقع في الحروب المعاصرة[١].

أما الإسلام فقد أغلق أو سع الأبواب أمام التخريب الحربي عندما حرم الحرق بالنار ، قال فقهاء المالكية وفي رواية عن أحمد : ليس للمقاتل حرية الاختيار في وسائل قهر العدو ، فلا تحرق حصون العدو بالنيران إلا إذا تعذر الغلب بدونها وخيف على المسلمين أو بدأ بها العدو[٢].

وكذلك منع الإسلام قطع الأشجار الخضراء التي تمد الحياة بالأوكسجين والغذاء إلا في حالة الضرورة الحربية قال ابن قدامة: ولا يجوز تخريب البنيان وإحراق النخيل وقطع الكرم وسائر الأشجار المثمرة[٣]. للنهي عن الفساد في الأرض في مثل قوله تعالى : " **ولاتعثوا في الأرض مفسدين** " [٤].

وصية أبي بكر في حماية البيئة : لقد فهم المسلمون واجبهم نحو البيئة ، وتمثلوه في حياتهم حتى في حالة الحرب ، ويؤكد ذلك وصية أبي بكر الصديق لأسامة بن زيد الذي اختاره الرسول ﷺ قائداً لجيش المسلمين في محاربة الروم، حيث قال رضي الله عنه : " **لا تخونوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقروا نخيلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة**

---

(١) د. مروان قدومي: العلاقات الدولية في الإسلام ص ٣٦ .

(٢) ابن رشد : بداية المجتهد ج ١ ص ٣٧٢، الشرح الكبير للدردير مع الدسوقي ج ٢ ص ١٧٧ .

(٣) ابن قدامة: المغني ج ٨ ص ٤٥٤ .

(٤) سورة البقرة : آية ٦٠ .

ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا للأكل، وإذا مررتم بقوم فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم من أجله " [١].

هذا الموقف المتميز للإسلام من البيئة يتفوق بوضوح عن الأنظمة المعاصرة التي تحرق الأخضر واليابس في سبيل فرض سيطرتها على العالم.

المحافظة على صحة المجتمع :

لقد فرضت الإدارة الإسلامية رقابة شديدة على أصحاب المهن الغذائية وحوانيت الأطعمة وألزمت الباعة اتباع النظافة والصدق في المعاملة وعدم الغش. ومن ذلك مراقبة الطحانين وإلزامهم بغربلة القمح وتنقيته قبل الطحن. ومراقبة الخبازين في حوانيتهم ومخابزهم ومطالبتهم بنظافة المعاجن ونظافة الماء المستعمل للعجين. وأن لا يعجن أحدهم بقدميه ولا بركبتيه لئلا ينحدر عرق أبدانهم في العجين . وأن يكون العجان ملثمًا لأنه لربما عطس أو تكلم أو سعل فيسقط شيء من بصاقه في العجين . وأن يشد جبينه بعصابة لتمنع عرقه أن يقطر بين يديه عند العجن ، وأن يرفع أكمامه ، ويحلق شعر ذراعيه حتى لا تسقط شعرات منه في العجين[٢].

نظام الحسبة :

الحسبة وظيفة دينية تعمل على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحمل الناس على رعاية المصلحة العامة. وقد فرض المسلمون نظام الحسبة للتفتيش على أصحاب المهن ومراقبة النظافة وعدم غش الأغذية وحفظ الصحة العامة .

---

[١] الأزدي: تاريخ فتوح الشام ص ١٢ .

[٢] د. عادل البكري: الطب الإسلامي ص ٣٣٣ .

كان والي الحسبة يأمر الطباخين بتغطية أوانيهم وحفظها من الذباب وهوام الأرض بعد غسلها بالماء الحار، ويمنعهم من طبخ لحوم المعز مع لحوم الضأن .

وكان يقوم بتفتيش حوانيت القصابين ويمنعهم من الذبح على أبواب دكاكينهم خشية تلويث الطريق بالدم . وحصر الذبح في المجازر. ويأمرهم بإدخال اللحوم داخل حوانيتهم فلا يعلقونها خارجها لئلا تؤذي المارة وتلوث ملابسهم[١].

ويأمر والي الحسبة البقالين بغسل البقول وأن ينقوها من الحشائش وينهى بائعي الخضروات عن بيع ما فسد.

وكان والي الحسبة يمنع جلابي الزبل من الدخول إلى الأسواق ، لما فيه من الضرر من الرائحة الخبيثة وإفساد لباس الناس عند المحاكة في الأسواق والطرقات الضيقة ، وتضييق أماكن البيع والشراء على المسلمين وعليه أن يعين لهؤلاء الجلابين مكاناً خاصاً يقفون فيه ، ويضعون بضاعتهم، ويقصدهم من يحتاج إليهم في ذلك المكان[٢].

ونظرا للدور الهام الذي يقوم به المحتسب ، وحتى يمكنه من القيام به على الوجه الأكمل لا بد أن يتحلى المحتسب بصفات خاصة أهمها ما يلي: أن يكون حراً عدلاً ذا رأي وصرامة وخشونة في الدين وعلم بالمنكرات الظاهرة ، بعيدا عن مواقف التهم والعيب ، وأن يجعل الزهد شعاره والتقوى دثاره ، والجرأة والشجاعة هدفه . وأن يتصف بالعلم والمعرفة والرفق واللين والصبر والإخلاص.

---

(١) عبد العزيز بن محمد : نظام الحسبة في الإسلام ص ١١٧- ١١٩٨ .

(٢) الشيرزي: نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص ١٣ .

وهكذا كان نظام الحسبة يسد حاجات المجتمعات الإسلامية فقد حمى الأفراد من تعدي بعضهم على بعض سواء كان التعدي اقتصاديا أو أخلاقياً أو حضارياً ، وحافظ على حقوق الأفراد وحقوق المجتمع وحقوق الشريعة، حيث اتسمت الحسبة في الشرع الإسلامي بسرعة الفصل في الأمور وإيقاع العلاج المناسب للمنكرات الواقعة .

ولم يقتصر الأمر على هذا الجهاز فحسب بل تعداه إلى جهاز آخر شمل أعلى سلطة في الدولة وهو **ديوان المظالم** الذي وجد لحماية الضعفاء من الأقوياء من الحكام وذوي السلطان بردعهم عن التعدي وأخذ الحق منهم.

إن هاتين الولايتين: **الحسبة والمظالم** قد مثلتا الرقابة الشاملة ، وبلغتا من الدقة والتقنين والعناية ، ما جعلتهما نواة للقضاء الإداري في الإسلام. هذا القضاء الذي عرفته الدولة الإسلامية منذ فجر الإسلام حقق العدالة والإنصاف بين أفراد الأمة والأمن والاستقرار بين ربوعها .

ومن هنا فقد وجدت في الدولة الإسلامية مؤسسات تعرف باسم ولايات مهمتها حفظ الأمن الداخلي (كالحسبة والمظالم إضافة إلى القضاء والشرطة)[1]. وأخرى لحفظ الأمن الخارجي للدولة الإسلامية .

مكانة الأرض وقيمتها :

يؤكد القرآن الكريم على مكانة الأرض وقيمتها ، وأنها آية من آيات الله : "**ومن آياته أنّك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحي الموتى إنه على كل شيء قدير** "[1].

فالأرض التي يعيش الإنسان عليها هي أحد مصادر الإنتاج الرئيسية بل هي المصدر الذي يضم كافة الموارد الطبيعية التي وضعها الله تحت تصرف

---

[1] وان كنا نقرر مؤكدين باديء ذي بدء ان عزل كل منها عن الاخرى لم يكن دقيقا فطالما أسند للقاضي أن يباشر المظالم والحسبة ، وطالما اتسع نطاق الشرطة ، فشملت احكم في الحدود وهكذا ...

[1] سورة فصلت: آية ٣٩.

الإنسان ، من مياه سطحية وجوفية ، وتربة تصلح للزراعة والإنبات، ومواد أولية من حيوانية أو نباتية أو معدنية ، وهذه جميعاً لا بد منها من أجل مزاولة الإنتاج في صوره المتعددة . كل هذه المعاني تعبر عنها آيات مثل: "والأرض وضعها للأنام ".[٢] " ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة "[٣].

حقيقة إن الأرض هبة من عند الله ، ومع ذلك فإن قدراً طيباً من قيمتها إنما يرجع إلى ما يبذل فيها من عمل بشري، وما ينفق في سبيل استصلاحها واستزراعها وتنميتها من مال .

ولكن من المؤسف حقاً أن الإنسان المعاصر لم يراع حق بيئته فأخذ في استقطاع مساحات واسعة من البيئة الطبيعية والزراعية من أجل إقامة المدن والعمارات وشق الطرقات وإقامة المنشآت التي جارت على المساحات الخضراء التي هي مصدر الرزق ومنحة الخالق للمخلوقين[٤].

والإنسان في الإسلام مأمور شرعاً أن يعمر هذه الأرض وأن يعمل فيها ما يصلحها ويزيد في خيراتها ، ولا يتعرض لها بالإفساد وتعطيل منافعها فيحرم الناس من خيرها :" والله لا يحب الفساد "[١].

فشكر هذه النعمة يكون بالمحافظة عليها والعمل على إنمائها وعدم التعرض لها بالإتلاف والإفساد. كما يكون بتيسير انتفاع الناس بها وعدم حجبها عنهم أو حرمانهم منها. فاستمرار عطاء الأرض بما فيها منوط

---

[٢] سورة الرحمن : آية ١٠ .

[٣] سورة لقمان: آية ٢٠ .

[٤] د. آمنة محمد نصير: الإسلام وحماية البيئة ص ٧٨ .

[١] سورة البقرة: آية ٢٠٥ .

بالمحافظة على مواردها ، وبدفع حقوق الله وحقوق المحرومين الواجبة فيما يخرج منها.

وبذا فإن المسلم بعمله الدؤوب ونيته الخالصة لله معمّر دنياه بغنى وثراء وقوة وعز، وآخرته بنعيم مقيم ، متوج برضوانه عز وجل :" **من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** " [٢].

فلو طبقت تشريعات الإسلام لما وصلت البيئة إلى هذه الدرجة من التدهور .

التشريعات الوقائية :

أكد الإسلام من هذه الزاوية على الصحة والمعافاة لئلا يعرض الإنسان نفسه للمكاره أيا كانت (درهم وقاية خير من قنطار علاج)[٣] وورد في الأثر (المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء) [٤]، فخير علاج للمرض هو أن تتفادى الوقوع فيه .

لذلك فالإسلام أمر بالوقاية – اتقاء أي مكروه يمكن أن يقع سواء أكان ذلك مرضاً أم ضرراً متوقعاً، مما يؤدي بنا إلى أن نكيف أنفسنا للبيئة الضارة أو القاسية كي نأمن خطرها [١].

فالإرشادات النبوية واضحة جلية في العلاج والوقاية بدرجة تكون أقرب إلى الأمر والإلزام وكلما كانت الحماية مرتبطة بالمقاصد الخمس التي جاءت بها الشريعة كانت درجة الإلزام أكبر ، وقد طرق عليه السلام موضوع التلوث بشكل مباشر ، محذراً أمته من المخاطرة ، فقد حدد لهم

---

[٢] سورة النحل: آية ٩٧ .

[٣] سميح ناطور : موسوعة الألفيات (مثل عربي) ص ٤٠ رقم المثل ٤٤٤ مكتب الطليعة للصحافة والنشر .

[٤] من كلام الحارث بن كلده طبيب العرب. وقد ذكر ذلك الشيخ ابن قيم الجوزية في كتاب الطب النبوي

[١] **عابد توفيق الهاشمي: مدخل إلى التصور الإسلامي ص ٩٧.**

مصادر التلوث وعلمهم طرق الوقاية منها ، فاعتبر فضلات الإنسان نجسة (ملوثة) ويجب على كل مسلم أن يتنظف منها، وتشخيصها بهذا الشكل المحدد، هو خطوة كبيرة في مسيرة الطب الوقائي ، ولو اتبعنا الآداب الإسلامية والنصائح المحمدية ، ما انتشرت أمراض الأنكلستوما والبلهارسيا والتيفوئيد بين السكان في الريف ، فقد تعرضت الأحاديث لموضوع الحجر الصحي [٢] وأوصت بضرورة حصار المرض ومنع انتقاله باعتزال المريض وعدم مخالطته . والعزل الصحي (الحجر) صورة من صور المحافظة على البيئة .

ووضع الإسلام القواعد الأساسية للوقاية من الحوادث قبل أن يظهر علم السلامة ويتبلور في إجراءات محددة في مجالات الصناعة وحوادث الطرق وحوادث المنازل .

وحذر الإسلام من رفع الصوت ، وبين أنه يحبط الأعمال ، وأن التلوث الضوضائي له آثار سيئة على صحة الإنسان ، فهو يصيبه بالإرهاق ويثير أعصابه ويفقده القدرة على التركيز الذهني. وشرع الإسلام العقوبات الرادعة للذين لا تحكمهم الضمائر الحية والذين يسيئون إلى عباد الله .

هذه تعاليم الإسلام تدعو إلى حماية البيئة والمحافظة عليها من التلوث ، وتجعل تلويث البيئة بأي ملوث من نجاسة أو مخلفات ضارة أو مواد سامة من الإفساد في الأرض الذي يحاسب الله عليه حساباً شديدا .

---

[٢] عمر محمود عبد الله : الطب الوقائي في الإسلام ص ٢١٤. مما ورد في ذلك قوله ﷺ : " إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها ،فلا تخرجوا منها" . مسلم: صحيح مسلم، باب الطاعون، م٤ ص ١٧٣٧ . البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الطب، م ٧ ص ١٤٦ .

فتطبيق هذه التعاليم بأمانة وإخلاص يساعد على إنقاذ البيئة من طيش الإنسان وجشعه، وإنقاذ الإنسانية بالتالي من غضبة البيئة. ويحقق السعادة للناس في الدنيا والآخرة .

وبعد، فإن البيئة النظيفة النقية هبة ونعمة من الله فصونوا نعمة الله واقبلوا هبته واشكروه عليها بالطاعة والمحافظة يزدكم خيراً وبركة من فضله.

" لئن شكرتم لأزيدنّكم ولئن كفرتم إنّ عذابي لشديد "[1].

مراجع البحث

١- القرآن الكريم

٢- ١-ابراهيم الصياد: الطب الإسلامي، العدد الثالث، الكويت، سنة ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

٣- ٢- ابن حجر : فتح الباري لشرح صحيح البخاري، دار الفكر – بيروت.

٤- ٣- ابن حنبل(احمد بن حنبل) : مسند الامام احمد، نشر : المكتب الإسلامي للطباعة والنشر – بيروت .

٥- ٤ – ابن رشد (محمد بن احمد بن محمد بن احمد بن رشد) : بداية المجتهد ونهاية المقتصد، دار الفكر.

٦- ٥- ابن ماجه(محمد بن يزيد القزويني) : سنن ابن ماجه، مطبعة عيسى البابي الحلبي.

٧- ٦ – د. آمنه محمد نصير: الإسلام وحماية البيئة ، مجلة الإسلام اليوم ، العدد ١٣ سنة ١٤١٦هـ/١٩٩٥م .

---

[1] سورة ابراهيم: آية ٧.

٨- ٧ — د. أمير عبد العزيز : نظام الإسلام ، مطبعة الأنصار ، سنة ١٤١٢هـ /١٩٩١م .

٩- ٨ — البيهقي(ابو بكر أحمد بن الحسين) : السنن الكبرى، دائرة المعارف العثمانية .

١٠- ٩ — د. جمال محمد أحمد عيده : دور المنهج الإسلامي في تنمية الموارد البشرية، دار الفرقان ، ط١ ، سنة ١٤٠٤هـ /١٩٨٤م .

١١- ١٠ — حسن أيوب: السلوك الاجتماعي في الإسلام، دار التراث العربي ، القاهرة، ط ٥ ، سنة ١٤٠٧هـ /١٩٨٧م .

١٢- ١١ — الشاطبي (ابو اسحاق الشاطبي) : الموافقات، دار المعرفة، بيروت .

١٢ – عبد الرحمن حميده : التلوث أبعاده وأخطاره، مجلة كلية العلوم الاجتماعية الرياض ، العدد ٣ ، سنة ١٣٩٩هـ /١٩٧٩م

١٣ – عبد الرزاق أشرف كيلاني : الحقائق الطبية في الإسلام، نشر : مكتبة الرسالة الحديثة ، عمان

١٤ – عبد السلام العبادي : الملكية في الشريعة ، مكتبة الاقصى ، عمان، ط١ سنة ١٣٩٥ هـ /١٩٧٥م .

١٥ – عبد العزيز بن محمد بن مرشد : نظام الحسبة في الإسلام ، المعهد العالي للقضاء ، السعودية ، سنة ١٣٩٢-١٣٩٣ هـ .

١٦ – عبد الله هلال : التأصيل الإسلامي للتشريعات البيئية، منبر الشرق ، اصدار المركز الإسلامي العربي للدراسات ، العدد ٦، رمضان ١٤١٣هـ /١٩٩٣م .

١٧ – عبد الفتاح الحسيني : الهدي الصحي، الماء والاصحاح في الإسلام، منظمة الصحة العالمية ، سنة ١٩٨٨م .

١٨ – عبد الوهاب عبد السلام طويلة : فقه الطهارة، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة ، ط١، سنة ١٤٠٦هـ /١٩٨٦م .

١٩ – عبد الهادي النجار : الإسلام والاقتصاد ، الكويت، سنة ١٩٨٣م .

٢٠ – عز الدين فراج : الإسلام والرعاية الصحية الأولية ، سنة ١٩٨١ .

٢١ – د. علي عبد الواحد وافي : أثر تطبيق النظام الاقتصادي الإسلامي، نشر : جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض.

٢٢ – عفيف طبارة : روح الدين الإسلامي ، ط١٢ نشر ١٣٩٤هـ /١٩٧٤م .

٢٣ – لطفي منصور: حقوق الإنسان والبيئة في الإسلام، اصدار مركز الدراسات والتطبيقات التربوية، ١٩٩٦م .

٢٤ — د. فتحي الدريني : الحق ومدى سلطان الدولة في تأييده، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ط٢ ، سنة ١٣٩٧هـ /١٩٧٧م .

٢٥ — محمد احمد القرشي : معالم القربة في أحكام الحسبة، دار الفنون بكيمبرج سنة ١٩٣٧م .

٢٦ — محمد سيد طنطاوي وآخرون

فكر المسلم المعاصر، نشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر ، ط١ .

٢٧ — محمد عطية الابراشي : عظمة الإسلام، مكتبة الانجلو المصرية، ١٣٨٨هـ /١٩٦٨م .

٢٨ — الشيخ محمود شلتوت : من توجيهات الإسلام، نشر : دار القلم ، سنة ١٩٦٦ م .

٢٩ — الشيخ محمد متولي شعراوي : في تربية الإنسان المسلم، دار العودة ، بيروت ، ١٩٨٢م .

٣٠ — مروان قدومي : العلاقات الدولية في الإسلام، جامعة النجاح الوطنية، ط١ ، سنة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

٣١- مصطفى الزرقا : المدخل الفقهي العام، المجلد الأول، دار الفكر، دمشق.

٣٢ — مسلم(ابو الحسين مسلم بن الحجاج) : صحيح مسلم، نشر ادارات البحوث العلمية والافتاء السعودية.

٣٣ — المناوي : فيض القدير شرح الجامع الصغير، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت .

٣٤ - المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية : أثر السلوك الإسلامي على صحة الفرد ، الكويت، ١٤٠٧هـ /١٩٨٦م.

٣٥ — يوسف القرضاوي : فتاوى معاصرة، نشر دار القلم، الكويت ، ط٣ ، سنة ١٤٠٨هـ /١٩٨٧م.